مُقَدِّمَة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله - ﷺ - وبعد..

فهذه سطور مكتوبة بمداد من الأسف والأسى على ما آل إليه حال أمة منكوبة، إرادتها مسلوبة، لا تراها إلا على الضد من كل تستحقه من رفعة وريادة، وللذين أحسنوا الحسنى وزيادة!

لكن على الرغم من تعدد بواعث الأسى؛ تمتزج كل كلمة كتبتها -في هذه السطور- بمشاعر الأمل في مستقبل مشرق ستصل إليه الأمة - يقينًا بمشيئة الله تعالى- بعد أن تتجاوز طور الغفلة إلى طور اليقظة والوعي بمكانتها اللائقة بها، وبمدى حاجة البشرية التعسة - رغم كل ما قدمته الطفرات العلمية والتكنولوجية من أسباب الترف والرفاهية - إلى عودتها لسالف أمجادها[1].

ولم تزل هذه الأمة تتعرض كل حين لألوان من التحديات التي تهدد كيانها أو تنهك بنيانها، الأمر الذي يستدعي مقاومة من الأمة

(1) يراجع في هذا المعنى الكتاب الماتع الذي صنفه الأستاذ أبو الحسن الندوي بعنوان: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين).

obeikandi.com

ويستنفر طاقاتها على أوسع نطاقاتها ومن كافة طوائفها وفئاتها، فيما نصفه في هذه الأوراق بالمقاومة الحضارية. وفي هذه الفصول عرضت نماذج للمقاومة الحضارية في قرون الانحدار[1]، وقد راعيت في اختيارها أن تكون معبِّرة عن تعدد الفاعلين في العمل (المقاوِم)، كما تعبر عن اتساع نطاق هذه المقاومة على نحو يدل على بقاء الحيوية في هذه الأمة رغم استحكام الداء، وتمكن الأعداء.

وتكمن أهمية هذا الموضوع (المقاومة الحضارية في قرون الانحدار) في أنه بحث في الجذور، أعني الجذور التي ينبثق منها واقع الأمة الراهن في صورته القائمة والقاتمة[2]، ولا يخفى أن

(1) وقد اصطلح مؤرخو المنظور الحضاري الإسلامي على عدها القرون الثلاثة المنصرمة؛ حيث بدأ التراجع بضعف دولة الخلافة العثمانية ودخولها في مرحلة ما سماه الغربيون بـ (الرجل المريض). وكان دخول الحملة الفرنسية إلى مصر علامة فارقة على دخول الأمة في هذه الحقبة، وسيأتي تعليل ذلك على نحو مفصل.

(2) هذه العبارات وأشباهها لا تعدو أن تكون وصفًا للواقع، ولا أقصد بها أن يكتسب القارئ نزعة تشاؤمية لا قدر الله تعالى بل كلي أمل في غد مشرق لهذه الأمة تستعيد فيه – عما قريب – زمامَ الريادة رغم هذا الكم الكبير من المأساوية الظاهرة في واقع الأمة؛ لأن هذه المأساوية جزء من الثمن الذي دفعته وتدفعه الأمة في هبَّتها المباركة التي لاحت بشائرها، وطمأنت المخلصين من أبناء الأمة إلى أن أمتهم قد أبصرت الطريق وحددت الأهداف رغم الأخطاء التي وقعت فيها حركات التغيير، وما هذه الأخطاء إلا مقدمات تصحيحية لا بد منها في كل حركة صدرت عن أمة اتخذت قرار التغيير.

تحليل هذا الواقع مقدمة ضرورية لتشخيص الداء ووصف الدواء، ولا يتأتى للباحث المستقصي تحليلُ هذا الواقع إلا بالكشف عن جذوره الضاربة في أطناب التاريخ القريب الذي أشبهت أيامه أيامنا، فصار هذا البحث من المقدمات المهمة لتشخيص الواقع وصياغة نموذج السعي المنشود؛ تطبيقًا للقاعدة الذهبية التي تنص على أن (الوعي قبل السعي)، ولا يخفى أن التبصر بالمسيرة التاريخية – واستخلاص قوانينها، واستيعاب دروسها– ركن ركين من أركان هذا الوعي.

وقد لفت نظري أثناء الدراسة أن الأمراض الكبرى التي عانت منها الأمة – في الحقبة محل الدراسة – لا تزال كما هي متمكنة من جسد الأمة إلى يومنا هذا، ومانعة إياها من تحقيق النهضة العظمى والطفرة الكبرى التي تلزم كي تتبوأ أمتنا المكانة اللائقة بها في مقدمة الأمم، وتودِّع بها الأمةُ – إلى غير رجعة – المكانةَ التي تبوأتها في العالم الثالث، وكأن أمتنا لم تعِ حركة التاريخ التي وعتها الأمم الناهضة وأفادت منها في تصحيح مسيرتها، وترشيد حركتها. وكأن أمتنا لم تستفد من دوران عجلة الأيام خبراتٍ تخرجها من كبواتها، وتفيقها من غفلاتها.

ولعل الوقوف على هذه الحقيقة الواقعية – ذات السند التاريخي– يضيف بُعْدًا آخر لأهمية موضوع الدراسة.

وقد حاولت - قدر استطاعتي- الاقتداء بأئمة المدرسة التاريخية الإسلامية[1] في الولوج إلى كهف التاريخ من مدخل البحث في: سنن العمران البشري وقوانين الاجتماع الإنساني التي صاغتها يد القدرة الإلهية، وطوتها في ثنايا الحركة التاريخية للأمم؛ لذا حاولتُ تحليل النماذج المعروضة - في إطار حركتها الاجتماعية، وفي سياق ظرفها التاريخي- لاستخلاص العوامل والقوانين الموجهة لهذه الحركة، والانتباه إلى الحقائق التي أسفرت عنها؛ من أجل تحصين الواقع من آفة تكرار الأخطاء، وتيسير عملية إعادة صياغة الواقع على وفق ما تقتضيه الشريعة الربانية، والحكمة العقلانية.

(1) يعُدُّ الباحثون المعاصرون ابنَ خلدون رائد هذه المدرسة التي لا تكتفي بعرض أحداث التاريخ في صورة مدونات سردية خالية عن التحليل - الرامي إلى استيعاب القوانين المسيّرة لحركة التاريخ - بل تضع هذه المدرسة في اعتبارها النظرَ إلى التاريخ؛ باعتباره وعاءً متجددًا لحركة الاجتماع البشري الساعي في تحقيق العمران الإنساني وفق سنن ربانية وقوانين اجتماعية توجه هذه الحركة، فيهدف المؤرخ العمراني إلى تحليل حركة الاجتماع البشري - في سعيه للعمران وفق القوانين سالفة الذكر- لاستخلاص العلل والأسباب التي تتمخض عنها حركة العمران، واستنباط القوانين الموجهة لهذه الحركة، كل هذا بقصد الإفادة من هذه الاستنتاجات في ضبط حركة الواقع وإعادة تشكيله وفق الإرادة الإلهية وما تقتضيه الحكمة العقلية المستبصرة بدروس التجربة التاريخية.
وبمناسبة الإشارة إلى ابن خلدون وريادته للمدرسة الإسلامية في التأريخ العمراني؛ أود لفت النظر إلى مؤرخ آخر يعد منهجه امتدادًا لهذه المدرسة، أعني الإمام الجبرتي في كتاباته التاريخية التي امتازت بعرض الأحداث التاريخية مشفوعة بالتحليل العميق المستبصر بتأثير السنن والقوانين سالفة الذكر.

ونظرًا لأن البحث تغلب عليه الصبغة التاريخية.. فكان لا بد من الاستعانة ببعض المصادر التاريخية التي تتوافر فيها مادة عن موضوع البحث، وكان جل اعتمادي في هذا الصدد على كتابين وجدت فيهما ما أنشده من الروح الخلدونية الباحثة - في ثنايا الأحداث التاريخية - عن السنن الربانية والقوانين العمرانية، وهما كتابا: (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) المعروف اختصارًا بـ(تاريخ الجبرتي)، وكتاب: (و دخلت الخيل الأزهر) للأستاذ «محمد جلال كشك»؛ فقد وجدتهما من أشد المراجع عناية بحركية المقاومة الشعبية والنخبوية في قرون الانحدار، لا سيما في حقبة الحملة الفرنسية وما اتصل بها[1].

فالناظر في تاريخ الجبرتي يجد أن خطته الرئيسة كانت الترجمة لأعلام عصره من المشايخ والقادة، ثم طور خطته على وقع حدث الحملة الفرنسية؛ ليسجل يومياتٍ تتبع فيها أدق تفاصيل المجتمع المصري، حتى يخال القارئ أن الجبرتي كان شخصًا أسطوريًّا خارقًا

(1) و سيأتي - في مقدمة الفصل الأول - بيانُ سبب العناية بحقبة الحملة الفرنسية، وعلاقة ذلك بتحديد قرون الانحدار، والتركيز على الحملة الفرنسية يستتبع التركيز على الحالة المصرية، وهذا لا يقلل من شأن دراسة أحوال الأقطار الأخرى العربية والإسلامية؛ لأن الوقوف عند الأشكال ليس غرضًا أصليًّا، وإنما الغرض الأصلي هو التأمل في حركة التغيير عبر مسيرتها التاريخية، ومحاولة استلهام التجارب في تغيير الواقع، واستخلاص القوانين والقواعد التي انبثقت عنها أشكال الحركة في التاريخ: إيجابًا وسلبًا؛ للإفادة منها في صياغة النموذج النهضوي المنشود. وهذه الفائدة مهمة لكل التجارب المشابهة.

أتاحت له مواهبه الفريدة أن يطلع على تفاصيل الأحداث ويصفها بهذه الدقة كأنه كان يعيش الحدث بنفسه، مع اهتمامه بالتعليق على الأحداث بتعليقات يبدو فيها – جليًّا – حسنُ إدراك الجبرتي لسنن التاريخ وقوانين العمران، ما يؤكد أنه من الامتدادات البارزة لمدرسة (ابن خلدون) في التحليل التاريخي الحضاري.

هذه كانت خطة الجبرتي، إلا أن المتأمل في تاريخه الماتع يدرك أن المجتمع المصري كان في حالة غليان مستمر حتى في الفترة التي سبقت دخول الحملة الفرنسية إلى مصر، وذلك بسبب فساد القيادة وانتشار المظالم، الأمر الذي أدى في النهاية إلى تسرب الضعف إلى كيان المجتمع، وطمع الأعداء في الإقليم المصري، ونجاح الحملة الفرنسية في دخول مصر بأقل الخسائر. فكان من المفيد الاستعانة بتاريخ الجبرتي في الكشف عن مسار هذا الغليان في المجتمع المصري وبواعثه ونتائجه في هذه الحقبة.

وكان للأستاذ «محمد جلال كشك» في رائعته (و دخلت الخيل الأزهر) الفضل الأكبر في تبصيري بأهمية تاريخ الجبرتي في الكشف عن الحالة الثورية المصرية في هذه الحقبة، وإن لم يكن هذا الكشف غرضًا مقصودًا في خطة الأستاذ محمد جلال كشك؛ حيث كان الغرض الرئيس للأستاذ كشك – كما يبدو من استقراء فصول كتابه – هو تفنيد شبهات المدرسة الاستعمارية التاريخية فيما يتعلق بقراءة تاريخ حقبة الحملة الفرنسية وتفسيره بما يخدم أغراض المستعمر.

غير أني ركزت - في التحليل التاريخي - على محور المقاومة الحضارية وحركيتها في المسيرة التاريخية، وتطرقت لجوانب تفصيلية أخرى لم يكن البحث فيها مقصودًا في خطة الشيخ الجبرتي والأستاذ محمد جلال كشك، وحاولت - قدر استطاعتي - أن أطيل النفَس في تحليل المشاهد التي تتجلى فيها صورة المقاومة الحضارية، والكشف عن دلالاتها وآثارها، ومدى الارتباط بين حركية المقاومة الحضارية وسلامة الأمة وتماسكها.

وكثيرًا ما أُضطر للحديث في الهوامش عن استطرادات مهمة ذات صلة بالمسألة محل البحث، وأخشى أن يكون إيرادها في صلب البحث قاطعًا للتسلسل المنطقي للأفكار، فأقرر إدراجها في الهوامش؛ لذا أرجو من القارئ الكريم أن يجعل من هوامش الدراسة محلًّا لعنايته.

وقد رتبت هذا الكتاب على ثلاثة فصول، مهدت لها بتأملات في مفهوم المقاومة الحضارية ودلالاته، ثم جعلت الفصل الأول للحديث عن المقاومة الشعبية الجماهيرية وسماتها، وبيان أثرها البالغ في الحفاظ على الكيان المادي والمعنوي (الحضاري) للأمة، مع كون هذه المقاومة الجماهيرية هي الرافد الأساس الذي أفرز النخبَ المقاوِمة، وعضدها في مسيرتها النضالية.

وفي الفصل الثاني ركزت على دور المؤسسات الوسيطة في بعث المقاومة الحضارية في حقبة التراجع الحضاري، ومثلت لها بـ(حركية

الأزهر الشريف) في حقبة الحملة الفرنسية والسنوات الأولى من حكم محمد علي[1]؛ حيث كان الأزهر الشريف المؤسسةَ المدنية (الأهلية) الوسيطة التي تمثل همزة الوصل بين الطبقة الحاكمة وعامة الشعب؛ لما كان له من مكانة سامقة، وفاعلية عظيمة أهّلَتاه للقيام بدور قيادي جوهري كان فيه أقرب ما يكون إلى الهيئة التمثيلية التي ارتضاها عامة الناس معبرة عن تطلعاتها في مواجهة الطبقة الحاكمة وتجاوزاتها.

وفي هذا الفصل سيجد القارئ ربطًا للتاريخ بالواقع؛ حيث سيلحظ القارئ مقارنات بين عمل المؤسسة الوسيطة في حقبة ازدهارها حين كان لها الصفة التمثيلية للشعب، وبين عملها في حقبة تراجعها حين نزعت منها هذه الصفة التمثيلية وتقلص عملها.

وفي الفصل الثالث ركزت على دور «الكلمة»، فتحدثت عن دور «الفتوى» في المقاومة الحضارية؛ لما كان لها من أثر بالغ في حفظ هوية الأمة والتصدي للمظالم.

وبهذا الترتيب نكون أمام تحليل منطقي متدرج للظاهرة محل البحث؛ ويمكن تشبيهه بدوائر ثلاث متداخلة:

فكبرى هذه الدوائر وأوسعها هي الحركة الجماهيرية متسعة النطاق، وهي ممثلة في الفصل الأول.

(1) قبل عملية (تصفية القيادة المثقفة) التي قام بها محمد علي بعد أن تم له تصفية القيادات السياسية والعسكرية في مذبحة القلعة؛ لينفرد بعد ذلك بحكم مصر دون منازع. ينظر: ودخلت الخيل الأزهر ص 18.

ووسطاها هي حركة الجماعات الوسيطة التي تحتضنها الحركة الجماهيرية، وهي ممثلة في الفصل الثاني.

وصغرى هذه الدوائر هي دائرة الكلمة، التي غالبًا ما تكون نابعة من موقف فردي لعالِم – أو علَم – ذي مسلك نضالي معروف، ويتحرك غالبًا في نطاق فاعلية الجماعة الوسيطة. وهذه الدائرة ممثلة في الفصل الثالث.

شكل للدوائر المتداخلة لعناصر المقاومة الحضارية

ثم ختمت البحث ببيان إجمالي لأهم النتائج المستخلصة عبر هذه الرحلة التي عشت فيها بوجداني قبل أن أخطها ببناني.

وأرجو أن أكون قد وفقت في اختيار النماذج المعبرة عن حيوية الدور السياسي والاجتماعي للمقاومة الحضارية في حقبة التراجع الحضاري للأمة.

obeikandi.com

ولا يسعني في مقامي هذا إلا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأستاذتنا الدكتورة نادية مصطفى وأسرة "مركز الحضارة" على ما لقيه هذا البحث من الدعم والتشجيع حتى خرج إلى النور بهذه الصورة التي نأمل أن تكون محل القبول من كل ناظر.

كما أرجو أن يقع هذا العمل موقع القبول من الإله الحق وموقع الانتفاع المأمول من الخلق.

***

obeikandl.com